

آيات الحكمة في سورة الإسراء دراسة نحوية في البنية التركيبية

الباحث : م.د. رشيد كريم مجيد علي

Dr. Rasheed Kareem Mageed Ali

وزارة التربية / مديرية تربية صلاح الدين / قسم تربية الإسحافي / متوسطة الرحمن للبنين .

تخصص : اللغة العربية / فرع اللغة

alrahmanllbnen@gmail.com

ملخص البحث:

إن الهدف الرئيس من الدراسة بيان الأثر النحوي في المعنى ، لماذا جاء التعبير بهذا التركيب دون غيره ، وما الدلالة التي نتجت عن ذلك ، وتبين أن الحكمة القرآنية لا تفهم من التركيب منفردا دون التراكمات الأخرى أو السياق القرآني ، وكذلك يكشف البحث جانباً من إعجاز النظم القرآني، وإبراز القيمة الدلالية للتركيب النحوي .

Research Summary:

The main objective of this study is to clarify the impact of grammatical structure on meaning—why a particular expression was chosen over others, and what implications resulted from that choice. It demonstrates that the wisdom of the Qur'an cannot be understood by examining a single grammatical structure in isolation from other structures or the broader Qur'anic context. Furthermore, the study reveals an aspect of the miraculous nature of the Qur'anic composition and highlights the semantic value of grammatical structure.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الحكمة على نبيه الأمين، وأكمل الدين بخاتم المرسلين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى من اهتدى بحكمته إلى يوم الدين، أما بعد: فإن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التي لا تنقضي عجائبها ، وإن أعظم ما يتجلى فيه هو "النظم" الذي تألفت فيه الحروف والتراكيب لتعطي دلالات تفوق طاقة البيان البشري، ومن هذا المنطلق، استوقفني في كتاب الله مقطع فريد في سورة الإسراء، يمكن تعريفه (بآيات الحكمة)، حيث رسمت هذه الآيات منهجاً متكاملأ لبناء الفرد والمجتمع، واختتمت بوصف إلهي حاسم: (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ). إنَّ اختياري لهذا الموضوع الموسوم بـ (آيات الحكمة في سورة الإسراء دراسة نحوية في البنية التركيبية)، جاء رغبة مني في سبر أغوار النص القرآني من زاوية "النحو الوظيفي"؛ أي كيف تخدم الأداة النحوية المقصد التشريعي. لقد آمنْتُ في دراستي هذه أن تلك الوصايا والأوامر والنواهي ليست مجرد نصائح منثورة، بل هي لآلئ مضيئةٌ جمعها ونظمها سمط التركيب النحوي بأبهى صورة؛ فالنحو هنا ليس مجرد قواعد جافة، بل هو ذلك الخيط الناظم الذي أحكم ترتيب تلك اللآلئ ومنعها من التشتت، وجعل منها عقداً فريداً يتجلى فيه بديع النظم. لقد قسمتُ عملي هذا إلى مبحثين ؛ تناولتُ في الأول منهما المفهوم اللغوي والاصطلاحي للحكمة، وخُصص الثاني للتحليل النحوي الدقيق للتراكيب (الاسمية، والفعلية ، والشرطية). وإنني أقدم بهذا الجهد المتواضع، أسأل الله أن يكون نافعا، وأن يوفقني لإبراز شيء من عظمة النظم القرآني، الذي يظل دائماً أسمى من كل تحليل، وأبلغ من كل بيان.

المبحث الأول: ماهية التركيب و الحكمة

المطلب الأول : تعريف التركيب لغة واصطلاحاً :

أولاً : التركيب لغةً: ذكر ابن فارس الجذر اللغوي (ر ك ب)، فبيّن أن الراء والكاف والباء أصل واحد ، يدل على علو شيء ، يقال ركب ركوباً ويركب، والركاب: الإبل، واحدها راحلة، ومن الباب: ركب الشحم وهي طرائق بعضها فوق بعض في مقدّم السنام^(١) .

ثانياً: التركيب اصطلاحاً: لم يشتهر المصطلح بهذه التسمية فقال عبد القاهر الجرجاني: ((واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك أنا لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يُعلّق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض وتُجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس))^(٢). وذكر موضحاً أن الكلام لا يترتب إلا بترابط بعضه ببعض وتأثير بعضه على بعض؛ فيدخل الاسم في الجملة الفعلية فتراه فاعلاً لفعل أو مفعولاً، ويأتي بعد تمام الكلام فيكون حالاً أو تمييزاً أو صفة، أو يدخل الاسم على اسم آخر فيكون مضافاً إليه أو صفة، فيما أن الكلام لا يكون إلا بالترتيب بهذا الشكل ونحوه، نعلم أن اللفظ تابع للمعنى؛ إذ يقول: "وان الكلم تترتب في النطق بسبب ترتيب معانيها في النفس"، وأنه لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتاً وأصداً حروف، لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر، أن يجب فيها ترتيب ونظم، وأن يُجعل لها أمكنة ومنازل، وأن يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك".^(٣) فهو النظم عند الجرجاني، ويقول في عبارته الشهيرة: ((ليس النظم شيئاً إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم))^(٤). وقال أبو الفتح ابن جني: ((أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه وهو الذي يسميه النحويون الجمل))^(٥)؛ فالجملة لا تكتمل إلا باكتمال أركانها؛ فإن لم تتم أركانها لم يتم معناها، وإن لم يتم معناها لم تُسمَ كلاماً؛ ومن هنا تظهر أهمية اتصال الكلام ببعضه ببعض. وقد ذكر الرضي الاسترابادي أن أصل أجزاء الكلام هو الإسناد ولا بد له من طرفين (المسند والمسند إليه)، وذكر أن التركيب العقلي الثنائي بين الثلاثة الأشياء (الاسم والفعل والحرف) لا يعدو ستة أقسام: الاسمان، والاسم مع الفعل، والحرف والفعل، والفعل مع الفعل، أو الحرف، فالاسمان يكونان كلاماً لكون أحدهما مسنداً والآخر مسنداً إليه، وكذا الاسم مع الفعل، والاسم مع الحرف لا يكون كلاماً، وكذا الفعل مع الفعل أو الحرف، لا يكون كلاماً لعدم الإسناد، أما الحرف مع الحرف فلا مسند فيهما ولا مسند إليه، فلا يتيسر الإسناد إلا في اسمين أو فعل واسم^(٦).

المطلب الثاني: تعريف الحكمة لغة واصطلاحاً:

أولاً: الحكمة لغةً: بيّن الراغب الأصفهاني أن دلالة (الحكمة) تأتي بمعنى منع منعاً لإصلاح، ومنه سُميت اللجام "حكمة" الدابة؛ فقيل: حكمتها وحكمتُ الدابة منعتها بالحكمة، وأحكمتها جعلت لها حكمة، وكذلك حكمت السفينة وأحكمتها^(٧).

ثانياً: الحكمة اصطلاحاً: عرفها ابن القيم فنذكر أنها تأتي بمعنى فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي^(٨).

المبحث الثاني: التراكيب النحوية في آيات الحكمة

المطلب الأول: التراكيب الاسمية ودلالاتها

المسألة الأولى: الجمل الاسمية التعليلية بأسلوب (إن، و كان)

إن هذا التركيب الأكثر تكراراً؛ حيث تعمل الجملة الاسمية كمرجعية عقلية تبرر للمكلف سبب الأمر أو النهي، في دراسة الجملة الاسمية، وجدت أنها أعطت دلالة القانون ثابت.

"إن" ودورها في ربط الحكم بالعلة: بيّن الدكتور فاضل السامرائي أن "إن" ليست لمجرد التوكيد، بل هي أداة ربط دلالية قوية حين تأتي في سياق التعليل، ففي قوله تعالى: (إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا)، نرى أن "إن" هنا تؤدي وظيفتين: التأكيد: لإزالة الشك في قُبْح الفعل^(٩)، والتعليل: فهي تجيب على سؤال يتبادر لذهن المكلف: "لماذا نهينا عن قتل الأولاد؟" و إنها تربط بين النهي وبين بشاعة النتيجة، مما يجعل الأمر أو النهي منطقياً ومستقراً في العقل^(١٠).

"كان" ودلالة الدوام والثبوت: إن الدكتور فاضل السامرائي هو توضيحه أن "كان" لا تعني دائماً انقطاع الزمن الماضي. ففي الآيات مثل: (إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً) و (إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا)، تأتي "كان" لتفيد "الدوام والاستمرار". هذا يعني أن وصف الزنا بـ "الفاحشة" أو العهد بـ "المسؤولية" ليس وصفاً طارئاً أو مؤقتاً، بل هو وصف أصيل وثابت لا ينفك عن هذه الأفعال أبداً^(١١).

التناسب بين نوع الجملة والغرض: الجملة الاسمية تدل على الثبوت والدوام، بينما الفعلية تدل على التجدد والحدوث. ومن هنا إن الأوامر والنواهي جاءت بجمل فعلية لأنها "أفعال" متجددة يمارسها المكلف (لا تقتلوا)، (لا تقربوا)، بينما جاءت التعليلات بـ جمل اسمية مؤكدة (إن، كان) لأن القيم الأخلاقية و "النتائج المترتبة عليها" ثابتة لا تتغير بتغير الزمن. قال تعالى: (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ)، (إن) حرف توكيد ونصب. (المبذرين) اسم إن منصوب بالياء. وجملة (كانوا إخوان الشياطين) في محل رفع خبر إن؛ حيث (كان) فعل ماض ناقص، (واو الجماعة) اسمها، و(إخوان) خبرها المنصوب، و(الشياطين) مضاف إليه^(١٢). أما من حيث الدلالة، استخدام "إن" الاسمية مع فعل "كان" يفيد التحقيق والثبات؛

أي أن التبذير صار صفة ملازمة لهويتهم. أما وصفهم بـ"إخوان" الشياطين بدلاً من أتباعهم " فيفيد المشاركة في الصفات والمشاكل في الطبع، مما يجعل المبذر شريكاً للشيطان في منهجه لا مجرد تابع له^(١٣)..

قوله تعالى (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) ذكر أصحاب إعراب القرآن معنى (إِنَّ) حرف توكيد ونصب. (رَبَّكَ) اسم إن منصوب بالفتحة، و(الكاف) ضمير متصل في محل جر مضاف إليه. وجملة (يبسط الرزق) في محل رفع خبر إن ؛ حيث (يبسط) فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير مستتر تقديره هو ، و (الرزق) مفعول به منصوب. (لمن) جار ومجرور متعلقان بـ (يبسط) . (يشاء) فعل مضارع صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. (ويقدر) فعل مضارع معطوف على (يبسط) مرفوع^(١٤). وورد هنا استعمال الجملة الفعلية (يبسط، يقدر) يفيد التجدد والحدوث المستمر، مما يعكس شمول قدرة الله في التصرف في شؤون خلقه لحظة بلحظة. التضاد بين "يبسط" (يوسع) و "يقدر" (يضيق) يقرر دلالة بلاغية مفادها أن الرزق ليس عشوائياً ولا خاضعاً لأسباب مادية فقط، بل هو خاضع لمشئته الله وحكمته، مما يدعو إلى الطمأنينة والتسليم واليقين بأن الرزق مقدّر بحكمة لا بقوة البشر^(١٥)

قوله تعالى (إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

التركيب النحوي: (إِنَّ) حرف توكيد ونصب ، و (الهاء) ضمير متصل في محل نصب اسم إن ،(كان) فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر تقديره هو. (بعباده) جار ومجرور متعلقان بـ (خبيراً)، (خبيراً) خبر أول لـ (كان) منصوب بالفتحة (بصيراً) خبر ثان لـ (كان) منصوب بالفتحة، وجملة (كان بعباده خبيراً بصيراً) في محل رفع خبر (إِنَّ)^(١٦).

التحليل والدلالة: اقتران التوكيد بـ (إِنَّ) مع الفعل (كان) يدل على ثبوت هذه الصفات لله تعالى واستمرارها. والجمع بين (خبيراً) و (بصيراً) يحقق كمال الإحاطة؛ فـ "الخبير" هو العالم ببواطن الأمور وخفياتها، و"البصير" هو العالم بظواهرها ومجاليها. ترتيب الصفات هنا جاء ليناسب السياق: فبعد الحديث عن توزيع الرزق وبسطه وقبضه ، يأتي التوكيد بأن الله خبير ببواطن أحوال العباد وبصير بظواهرهم، فيضع الرزق في موضعه المناسب لحال كل عبد ، مما يعزز دلالة الحكمة والعدل الإلهي في تدبير الأرزاق^(١٧).. ذكر الزمخشري أنه سلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عما كان يرهقه من الإضافة ، بأنّ ذلك ليس لهوان منك عليه ، ولا لبخل به عليك ولكن لأنّ مشيئته في بسط الأرزاق وقدرها تابعة للحكمة والمصلحة . ويجوز أن يريد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذي الخزان في يده ، فأما العبيد فعليهم أن يقتصدوا . ويحتمل أنه عزّ وعلا بسط لعباده أو قبض ، فإنه يراعي أوسط الحالين ، لا يبلغ بالميسوط له غاية مراده ، ولا بالمقبوض عليه أقصى مكروهه ، فاستتوا بسنته^(١٨).. **يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِأَنَّ مَصْلَحَةَ كُلِّ إِنْسَانٍ فِي أَنْ لَا يُعْطِيَهُ إِلَّا ذَلِكَ الْقَدْرَ، فَالْتَفَاتُ فِي أَرْزَاقِ الْعِبَادِ لَيْسَ لِأَجْلِ الْبَخْلِ، بَلْ لِأَجْلِ رِعَايَةِ الْمَصَالِحِ.**^(١٩)

تحليل قوله تعالى (إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) (إِنَّ) حرف توكيد ونصب. (قتلهم) اسم إن منصوب بالفتحة، و (هم) ضمير متصل في محل جر مضاف إليه. جملة (كان خطأ كبيراً) في محل رفع خبر إن ؛ حيث (كان) فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر تقديره هو يعود على "القتل"، و(خطئاً) خبر كان منصوب بالفتحة، و(كبيراً) نعت لـ (خطئاً) منصوب مثله^(٢٠)..

التحليل والدلالة: استخدام "إِنَّ" يؤكد قبح الفعل وشناعته. واختيار لفظ "خِطْئًا" (بكسر الخاء) بدلاً من "خطأ"، (بفتحها) يحمل دلالة بلاغية في اللغة؛ فالخِطْء هو الذنب العظيم المتعمد، بينما الخطأ (بالتفتح) قد يكون غير مقصود. وصف هذا الفعل بـ "كبيراً" يرفع من درجة التحذير، حيث يُصور القتل ليس كجريمة جنائية فحسب، بل كخطيئة أخلاقية ووجودية جسيمة لا تتناسب مع فطرة الإنسان، مما يغلق الباب أمام أي تبرير لهذا السلوك.

تحليل قوله تعالى (إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) (إِنَّ) حرف توكيد ونصب، و(الهاء) ضمير الشأن في محل نصب اسم إن. (كان) فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر يعود على القتل (أو الفعل المنهي عنه) و (فاحشة) خبر كان منصوب بالفتحة. (و) حرف عطف (ساء) فعل ماض للزم مبني على الفتح، وفاعله ضمير مستتر تقديره هو. (سبيلاً) تمييز منصوب بالفتحة (أو مفعول به على رأي الكوفيين والمشهور أنه تمييز مفسر للضمير في ساء)^(٢١).

التحليل والدلالة: استعمال "كان" هنا يفيد تحقق الصفة وثباتها لهذا الفعل؛ فهو لا يخرج عن كونه "فاحشة" أبداً، وصفه بـ"الفاحشة" (وهي تجاوز الحد في القبح) يُبرز طبيعة الفعل الشنيعة. أما قوله "ساء سبيلاً" فهو أسلوب ذم يصور هذا الفعل ليس كجريمة فحسب، بل كطريق مهلك ومنهج منحرف يؤدي بصاحبه إلى أسوأ العواقب، فـ "السبيل" هنا يشير إلى المسلك الأخلاقي والعملية الذي يختار الإنسان أن يسير فيه، والقرآن يقرر أن هذا المسلك هو "أسوأ المسالك" التي يمكن أن يختارها بشر.

تحليل قوله تعالى (إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا)

التركيب النحوي: (إنَّ) حرف توكيد ونصب ، و (الهاء) ضمير الشأن في محل نصب اسم إن. (كان) فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر يعود على المقتول ظلماً (الذي أشارت إليه الآيات السابقة)، و(منصوراً) خبر كان منصوب وعلامة نصبه الفتحة. وجملة (كان منصوراً) في محل رفع خبر إن^(٢٢).

التحليل والدلالة: استخدام "إنَّ" للتوكيد مع "كان" يعطي معنى الثبوت والتحقق، وتأتي هذه الآية لتقرر قانوناً إلهياً يتجاوز الظاهر؛ فبينما يبدو القتل مغلوباً في منطق البشر ، يقرر النص القرآني بأنه "منصور" في ميزان الله. وصفه بـ "منصوراً" (اسم مفعول) يفيد شمول النصر له إما بالقصاص في الدنيا أو بحصوله على حقه كاملاً في الآخرة، وهو تركيب يُحدث توازناً نفسياً وعدلاً إلهياً يرفع عن القتل صفة الانكسار ويلحقها بـ"القاتل" الذي سُلب منه حق النصر المادي، مما يرسخ عدالة الجزاء^(٢٣).

المطلب الثاني: الجمل الاسمية التقريرية (الثوابت والنتائج)

وهي الجمل التي تقرر حقائق عامة أو صفات كونية لا تتعلق بتعليل نهي بعينه بل برسم صورة كلية: قال تعالى (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) التركيب النحوي: (الواو) عاطفة أو استئنافية. (كان) فعل ماض ناقص. (الشيطان) اسم كان مرفوع بالضمّة. (لربه) جار ومجرور متعلقان بـ (كفوراً)، والهاء مضاف إليه. (كفوراً) خبر كان منصوب وعلامة نصبه الفتحة^(٢٤)..

التحليل والدلالة: دخول الفعل (كان) هنا يفيد استمرار الوصف وثباته، أي أن كفران الشيطان ليس حدثاً طارئاً بل هو صفة راسخة ومتأصلة فيه. أما تقديم الجار والمجرور (لربه) على الخبر (كفوراً) فيؤدي وظيفة حصر وتأكيد؛ مما يعطي التركيب قوة في تقرير منتهى الجحود وعاقبة اتباع هذا المسلك في سياق النهي عن التنذير^(٢٥). وقال الزجاج ((أي يفعلون ما يسول لهم الشيطان.))^(٢٦).

قال تعالى: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ)

التركيب النحوي: (رَبُّ) مبتدأ مرفوع (كم) ضمير متصل في محل جر مضاف إليه + (أَعْلَمُ) خبر المبتدأ على وزن "أفعل التفضيل" + (بما) جار ومجرور (الباء حرف جر، وما اسم موصول) + (في نُفُوسِكُمْ) جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول^(٢٧).

التحليل والدلالة: التركيب الاسمي: بدأت الآية بجملة اسمية لتقرير حقيقة ثابتة ومستمرة، وهي علم الله الأزلي والمحيط بما تخفيه الصدور.

تحليل قوله تعالى (ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)

التركيب النحوي: (ذلك) اسم إشارة مبني في محل رفع مبتدأ. (خير) خبر المبتدأ مرفوع بالضمّة. (وأحسن) الواو عاطفة، أحسن اسم معطوف على "خير" مرفوع مثله. (تأويلاً) تمييز منصوب وعلامة نصبه الفتحة^(٢٨).

التحليل والدلالة: استعمال اسم الإشارة (ذلك) للبعد يفيد تعظيم المشار إليه (وهو الامتثال للأوامر والنواهي السابقة) ورفع مكانته. أما صياغة "خير" و "أحسن" (أفعل التفضيل) في سياق الإخبار، فهي تقرر أن اتباع هذا المنهج الإلهي هو الخيار الأفضل والأرقى على الإطلاق مقارنة بغيره من المسالك. وجاء نصب "تأويلاً" على التمييز ليحصر جهة الأفضلية في "العاقبة والمال"؛ أي أن هذا الطريق ليس مجرد التزام أجوف، بل هو الأفضل من حيث النتيجة النهائية والجزاء ، مما يربط الامتثال النحوي للأمر بالغرض النفعي للإنسان في عاقبة أمره.

تحليل قوله تعالى (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا)

التركيب النحوي: (كُلُّ) مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة. (ذلك) اسم إشارة في محل جر مضاف إليه. (كان) فعل ماض ناقص. (سَيِّئُهُ) اسم كان مرفوع بالضمّة، و(الهاء) مضاف إليه. (عند) ظرف مكان منصوب متعلق بـ (مكروهاً)، و (ربك) مضاف إليه. (مكروهاً) خبر كان منصوب بالفتحة. وجملة (كان سيئته... مكروهاً) في محل رفع خبر المبتدأ "كل".^(٢٩).

التحليل والدلالة: يؤدي لفظ "كل" وظيفة الاستغراق والشمول، حيث يجمع تحت حكمه جميع الأوامر والنواهي التي سبقت في السياق، مما يمنع تجزئة الامتثال. وإسناد الخبر إلى "سيئته" (سواء فُرئت "سيئة" أو "سيئته") يخدم معنى حصر الحكم في الجوانب المنهي عنها من تلك التصرفات. كما أن وقوع "مكروهاً" خبراً لـ "كان" يفيد أن وصف "الكراهة" (وهي هنا كراهة تحريم) هو وصف ثابت ومستقر عند الله تعالى، لا يتغير بتغير الأزمان أو العادات البشرية. وتقديم ظرفية "عند ربك" قبل الخبر "مكروهاً" يخدم معنى التعظيم والتشريع؛ فالمرجع في تقبيح الأفعال وكراهتها هو الميزان الإلهي لا الأهواء النفسية.

المطلب الثالث : التراكيب الفعلية ودلالاتها

أولاً : التراكيب الفعلية المثبتة

تحليل قوله تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) التركيب النحوي: فعل ماضي (قضى) + فاعل مضاف (ربك) + مفعول به مصدر مؤول من أن ولا والفعل (٣٠).

التحليل والدلالة: أرى أن اختيار الفعل الماضي (قضى) بدلاً من الفعل المضارع (يقضي) يفيد "الفراغ من الأمر"؛ فالأمر هنا قضاء مبرم لا يقبل التبدل، أما تركيب (ألا تعبدوا) فهو نفي دخلت عليه (أن) المصدرية ليتحول إلى حتمية (عدم العبادة لغير الله)، وهذا أقوى في الإلزام من قولنا "اعبدوا الله وحده"؛ لأن الحكمة تقتضي هنا "التخلية" بنفي الشرك أولاً (٣١).

تحليل قوله تعالى: (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)

التركيب النحوي: فعل أمر (قل) + جملة مقول القول (رب ارحمهما) + كاف التشبيه وما المصدرية (٣٢) ..

التحليل والدلالة: نلاحظ هنا انتقال الأمر من "الخطاب المباشر" للوالدين إلى "الدعاء" لهما. والربط بـ (كما ربياني) هو ربط "تعليقي" بصيغة التشبيه؛ أي أن ارحمهما "بسبب" تربيتهما لي. الفعل الماضي (ربياني) يستحضر مجهوداً قد تم وانتهى، مما يوجب مكافأته بطلب الرحمة (٣٣) ..

تحليل قوله تعالى: (وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ)

التركيب النحوي: فعل أمر (أت) مبني على حذف حرف العلة + مفعول به أول (ذا) + مفعول به ثانٍ (حقه) (٣٤).

التحليل والدلالة: الفعل (أت) يحمل دلالة على الإيصال والتمكين. ونلاحظ أن المفعول الثاني جاء معرفة (حقه)، وفي هذا إشارة دقيقة في باب الحكمة؛ فالمال الذي تدفعه للقريب ليس منحة أو صدقة اختيارية، بل هو "حق" ثابت له في مالك. الحكمة هنا تقتضي تغيير العقلية من "التفضل" إلى "أداء الواجب"، وقد خدم التركيب الإضافي (حقه) هذا المعنى بقوة (٣٥).

تحليل قوله تعالى: (فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِّنْ سُوْرَةٍ)

التركيب النحوي: فعل أمر (قل) + مفعول مطلق (قولا) + نعت (ميسوراً).

التحليل والدلالة: يأتي هذا الأمر في حال العجز عن العطاء المادي. استخدام المفعول المطلق هنا (قولا) يهدف لتوكيد الفعل، أما وصفه بـ (ميسوراً) من "اليسر"، فهو تركيب يوجه المكلف لمراعاة نفسية السائل. ويشير السامرائي إلى أن النعت يخصص المعنى، فالحكمة هنا هي "اليسر اللفظي" كبديل عن "العطاء المادي" (٣٦).

المطلب الرابع: الجمل الفعلية المنفية وشبه المنفية (النهي)

تحليل قوله تعالى: (لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ)

التركيب النحوي: (لا) الناهية + فعل مضارع مجزوم (تجعل) + مفعول به أول (إلهاً) + نعت (آخر) (٣٧). إعراب القرآن

التحليل والدلالة: بدأت الوصايا بـ (لا) الناهية، وهي طلب الكف على وجه الاستعلاء.

أرى أن تقديم النهي عن الشرك على الأوامر بالبر هو من باب "إخلاء القلب" وتطهيره قبل ملئه بالطاعات.

تحليل قوله تعالى: ((فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا))

التركيب النحوي: (الفاء) رابطة لجواب الشرط + (لا) الناهية + فعل مضارع مجزوم (تقل)، (أفٍّ) اسم فعل مضارع، (لا) الناهية (مكررة) + فعل مضارع مجزوم (تنهرهما) (٣٨).

التحليل والدلالة: ربطت "الفاء" النهي بشرط بلوغ الكبر، مما يفيد أن رعاية مشاعر الوالدين واجبة التحقق فور ظهور علامات الضعف عليهما. وبدأ النهي بـ لا تقل ليضبط اللسان أولاً، واختير اسم الفعل (أفٍّ) بدلاً من الفعل "أتضجر" لقوته في تصوير أدنى مراتب الضيق؛ وتذكيره يفيد النهي عن أي نوع من أنواع التبرم. ثم عطف عليه (ولا تنهرهما) لينتقل من النهي عن "القول" القليل إلى النهي عن "الفعل" (٣٩). "الغليظ (الزجر)" ، وبذلك أحكم التركيب سد كل منافذ الأذى (القول والفعلي) في أدق الظروف الإنسانية (٤٠).

المبحث الثالث: التراكيب الشرطية

تحليل قوله تعالى: (إِنَّمَا يَبْتَغِ عِنْدَكَ الْكِبَرُ)

التركيب النحوي: (إن) الشرطية مدغمة في (ما) الزائدة للتوكيد + فعل مضارع مؤكد بنون التوكيد الثقيلة.

التحليل والدلالة: أرى أن اقتران الشرط بـ (ما) التوكيدية ونون التوكيد في الفعل يرفع من درجة "الترقب" لهذا الظرف (الكبر). الحكمة هنا تقتضي إعداد النفس لحالة ضعف الوالدين، فالمسألة هنا ليست مجرد افتراض، بل هو "تأكيد" لضرورة الاستعداد النفسي لهذا الوقت بالذات.

- الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبي الحكمة والبيان، وعلى آله وصحبه أجمعين.
١. وحدة النظم: ثبت لي أنَّ هذه الآيات ليست مجرد وعظ مرسل، بل هي بناء هندسي محكم، استُخدم فيه التركيب النحوي لربط الأوامر بالنواهي، والنتائج بأسبابها، مما جعل من هذه الوصايا عقداً تربوياً متصلاً لا يشوبه انفكاك.
 ٢. فاعلية "الجملة الاسمية": تبين من خلال تحليل مواضع مثل (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ) و (إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) ، أنَّ اختيار الاسمية قد أفاد الثبوت والاستمرار، لتقرير حقائق عقدية وأخلاقية لا تتغير بتغير الزمان أو الأحوال.
 ٣. إحكام المنع وتدرجه في "تراكيب النهي" تجلت براءة التركيب في الفصل بين النهي عن القول والنهي عن الفعل؛ ففي قوله (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ) جاء النهي عن أدنى مراتب القول عبر "اسم الفعل" (أَفٍّ) المنكر ، ليفيد استغراق ومنع أقل القليل من التبرم، بينما استهدف قوله (وَلَا تَنْهَرُهُمَا) الجانب الفعلي الغليظ (الزجر). وهذا التدرج النحوي يثبت أنَّ الحكمة التشريعية سدت منافذ الأذى (القول والحسي) عبر معايير دقيقة لمراتب النهي بما يتناسب مع ضعف الوالدين عند الكبر.
 ٤. الربط بالتعليل والشرط: كشف البحث أنَّ التراكيب الشرطية والسببية (مثل فاء السببية في "فتلقى") قد أدت دوراً محورياً في ربط المصير الإنساني بمدى الامتثال، مما يرسخ مبدأ المسؤولية الفردية.
 ٥. الدقة التركيبية و المناسبة الدلالية: كشف البحث لي أنَّ الأداة النحوية (من تقديم وتأخير، وتوكيد، وحذف) ليست مجرد زينة لفظية، بل هي أدوات لمعايرة الكلام معايير دقيقة؛ تهدف إلى مطابقة المقال لمقتضى الحال بدقة متناهية. فالانتقال من الجملة الفعلية إلى الاسمية، أو اختيار صيغة "أفعل التفضيل" في (أعلم) ، جاء ليضبط مساحة المعنى المراد ضبطاً هندسياً، مما يجعل النظم النحوي وعاء معيارياً للحكمة الإلهية. وختاماً، فإنَّ هذا الجهد ما هو إلا محاولة متواضعة لبيان الإعجاز القرآني، وإنني لأرجو أن أكون قد وفقت في تبيان بعض اللطائف التي تجعل من لغتنا العربية وعاءً فريداً لكلام الله. وما كان فيه من صواب فمن الله وحده، وما كان من نقص أو تقصير فمن نفسي ومن الشيطان.

المصادر

- أحكام القرآن : أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: عبد السلام محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- إعراب القرآن الكريم (دعاس): قاسم حميدان دعاس، القرن: الخامس عشر، الناشر: دار المنير. دار الفارابي، مكان الطبع: دمشق، سنة الطبع: ١٤٢٥ ق.
- إعراب القرآن وبيانه: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى : ١٤٠٣هـ)، الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية ، (دار اليمامة - دمشق - بيروت) ، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت)، الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ.
- إعراب القرآن: أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: ٣٣٨هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ.
- تأويل مشكل القرآن : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، المحقق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، سنة الولادة / سنة الوفاة ٦١٦هـ، تحقيق علي محمد البجاوي، الناشر عيسى البابي الحلبي وشركاه
- الجامع الصحيح سنن الترمذي: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.
- الجدول في إعراب القرآن الكريم : محمود بن عبد الرحيم صافي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، الناشر: دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ.
- الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت - لبنان، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

- دلائل الإعجاز ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، (د.ط)، القاهرة، (د.ت).
- شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، محمد بن الحسن الرضي الاستربادي، تحقيق: الدكتور يحيى بشير مصري، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - عمادة البحث العلمي، الطبعة الأولى، الرياض، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.
- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق وتعليق ودراسة: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، شارك في تحقيقه : الأستاذ الدكتور فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، الرياض، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، (د.ت).
- مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد : محمد بن عمر نوي الجاوي البننتي إقليميا، التتاري بلدا (المتوفى: ١٣١٦ هـ)، المحقق: محمد أمين الصناوي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٧ هـ.
- معاني القرآن للأخفش : أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط (المتوفى: ٢١٥ هـ) ، تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.
- معاني القرآن : أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: ٢٠٧ هـ)، المحقق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر، الطبعة: الأولى.
- معاني القرآن وإعرابه: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١ هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- معاني النحو للدكتور فاضل صالح السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان - الأردن، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير : أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦ هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.
- المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بـ "الراغب الأصفهاني"، تم التحقيق والإعداد بمركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، (د.ط)، (د.ت).
- مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

الهوامش

- ١ (ينظر: مقاييس اللغة مادة ر / ك / ب.
- ٢ (دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني: ٥٥
- ٣ (دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني: ٥٦.
- ٤ (دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ٥٢٥.
- ٥ (الخصائص لابن جني: ٧٢:١
- ٦ (ينظر شرح كافية ابن الحاجب للرضي الاستربادي: ١٩:١
- ٧ (المفردات للراغب الأصفهاني: ١٦٧:١
- ٨ (مدارج السالكين لابن القيم: ٤٩٩
- ٩ (ينظر معاني النحو للدكتور فاضل السامرائي ٢٨٦:١
- ١٠ (ينظر معاني النحو للدكتور فاضل السامرائي: ١: ٢٨٩ / ٢٩٠ / ٢٩١
- ١١ (ينظر معاني النحو للدكتور فاضل السامرائي: ١: ٢١١ / ٢١٣ / ٢١٤ / ٢١٥.

- ١٢ (ينظر: الجدول في إعراب القرآن الكريم: ٣٦ / ١٥)
- ١٣ (ينظر : الكشف : للزمخشري : ٦١٩ / ٢)
- ١٤ (ينظر : إعراب القرآن : للدعاس : ١٨٨ / ٢)
- ١٥ (ينظر معاني النحو للدكتور فاضل السامرائي : ١ : ٢٨٩ / ٢٩٠ / ٢٩١)
- ١٦ (ينظر : معاني القرآن وإعرابه : للزجاج : ٢٦١ / ٣)
- ١٧ (ينظر معاني النحو للدكتور فاضل السامرائي : ١ : ٢٨٩ / ٢٩٠ / ٢٩١)
- ١٨ (ينظر : الكشف للزمخشري : ٦٤٩ / ٢)
- ١٩ (ينظر : مفاتيح الغيب : للرازي : ٣٣٠ / ٢٠)
- ٢٠ (ينظر : إعراب القرآن الكريم : للدعاس : ١٨٩ / ٢)
- ٢١ (ينظر : إعراب القرآن وبيانه : محي درويش : ٤٣٣ / ٥)
- ٢٢ (ينظر : التبيان في إعراب القرآن : للعكبري : ٨١٨ / ٢)
- ٢٣ (ينظر : الكشف : للزمخشري : ٦١٩ / ٢)
- ٢٤ (ينظر معاني النحو للدكتور فاضل السامرائي : ١ : ٢٨٩ / ٢٩٠ / ٢٩١)
- ٢٥ (ينظر : الكشف : للزمخشري : ٦١٩ / ٢)
- ٢٦ (ينظر : معاني القرآن وإعرابه : للزجاج : ٢٣٥ / ٣)
- ٢٧ (ينظر : معاني القرآن : للفراء : ٣٠٣ / ١)
- ٢٨ (ينظر : معاني القرآن للأخفش : ٤٢٣ / ٢)
- ٢٩ (ينظر : معاني القرآن للفراء : ١٢٤ / ٢)
- ٣٠ (ينظر : إعراب القرآن : للنحاس : ٢٦٩ / ٢)
- ٣١ (ينظر : مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد : ٦٢٢ / ١)
- ٣٢ (ينظر : إعراب القرآن : للزجاج : ٣٠٣ / ١)
- ٣٣ (ينظر : إعراب القرآن : للنحاس : ٢٥٦ / ١)
- ٣٤ (ينظر : معاني القرآن للفراء : ١١٤ / ٣)
- ٣٥ (ينظر : إعراب القرآن : للزجاج : ٣٠٣ / ١)
- ٣٦ (يُنظر معاني النحو للدكتور فاضل السامرائي : ٣ : ١٨١)
- ٣٧ (يُنظر : إعراب القرآن : للنحاس : ٢٦٩ / ٢)
- ٣٨ (يُنظر : أحكام القرآن : للجصاص : ٣٠٧)
- ٣٩ (يُنظر : تأويل مشكل القرآن : لابن قتيبة : ٩٥)
- ٤٠ (يُنظر معاني النحو للدكتور فاضل السامرائي : ٣ : ١٨١)